وتكونوا شهداء على الناس

الحمد الله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس، والصلاة والسلام على المبعوث إلى كافة الناس، محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً مزيداً. أما بعد:

فهذه وقفة قصيرة نقفها مع آية من كتاب الله؛ يقول الله سبحانه وتعالى في آخر آية من سورة الحج: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ...} [**الحج**: 78]**؛ بل نقف مع جزء من آية مع قوله تعالى:** {وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} **فهذه الآية تدل على فضل هذه الأمة؛ حيث أنها ستشهد على بقية الأمم يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** ((**يُدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير؟ فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ:** {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}**، فذلك قوله جل ذكره:** {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[**البقرة**: 143]**، والوسط العدل**[1]**، قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: "قال علماؤنا: أنبأنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة، وتوليه خطير الشهادة على جميع خلقه، فجعلنا أولاً مكاناً، وإن كنا آخراً زماناً؛ كما قال عليه السلام:** ((**نحن الآخرون الأولون**))[2]**، وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلاً"**[3]**. وقال ابن القيم رحمه الله: "أخبر أنه كما جعلهم أمة وسطاً خياراً اختار لهم أوسط جهات الاستقبال وخيرها، كما اختار لهم خير الأنبياء، وشرع لهم خير الأديان، وأنزل عليهم خير الكتب، وجعلهم شهداء على الناس كلهم لكمال فضلهم وعلمهم وعدالتهم، وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة، وأشرفها لتتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة، والرسول، والكتاب، والشريعة.."**[4]

وما كانت هذه الأمة أفضل الأمم إلا لأن الله خصها وفضلها بمزايا عن غيرها من الأمم؛ فنبيها أفضل نبي، وكتابها ناسخ لجميع الكتب السابقة ومهيمن عليها، وهي الأمة العدل الوسط، وهي أول الأمم دخولاً الجنة، وأكثر أهل الجنة دخولاً أهلها؛ عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}[**آل عمران**: 110]**، قال:** ((**إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**))[5]**، قال ابن القيم: "فظهر أثر كرامتها على الله سبحانه في علومهم، وعقولهم، وأحلامهم،**

وفطرهم، وهم الذين عرضت عليهم علوم الأمم قبلهم، وعقـولهم، وأعمالهم، ودرجاتهم، فازدادوا بذلك علماً، وحلماً، وعقـولاً، إلى مـا أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من علمه وحلمه."[6]

فمن كان من هذه الأمة فهو من خير الأمم عند الله، ولكن يجب أن يكون متصفاً بصفات وأخلاق هذه الأمـة اتصـافاً حقيقـاً، وذلـك بـأن يكون مؤمناً بخاتم النبي محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم، راضـياً بـه، متبعاً له في جميع أقواله وأفعاله وأحوالـه، مسـتقيماً على شـرعه، عاملاً بجميع الصفات الفاضلة الـتي نـالت بـه الأمـة المحمديـة هـذه المنزلـة؛ قـال ابن رجب: "**فمـا يحسـن بمن كـان من خـير الأمم، وانتسـب إلى متابعـة خـير الخلـق، وخصوصـاً من كـان يسـكن خـير منازل المسلمين في آخر الزمان إلا أن يكون متصفاً بصفات الخير، مجتنباً لصفات الشر، وقبيح به أن يرضى لنفسـه أن يكـون من شـر الناس مع انتسابه إلى خير الأمم، ومتابعـة خـير الرسـل، قـال اللـه تعـالى:** {**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْـرُ الْبَرِيَّةِ**} [**البينة**: 7]**؛ فخير النـاس من آمن وعمـل صـالحاً**"[7]**.ـ وخـير هـذه الأمـة القرن الأول؛ ثم الذين يلونهم؛ فعن عبـد اللـه رضـي اللـه عنـه عن النبي صلى اللـه عليـه وسـلم قـال:** ((**خـير النـاس قـرني، ثم الـذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**...))[8]**؛ لأن القرن الأول عـاش فيـه خـير من وطئ الثرى، محمد بن عبد الله المبعـوث في أم القـرى، والمرسـل إلى جميع الورى، في ذلـك القـرن عـاش الصـديق أبـو بكـر، وعمـر الفاروق، وعثمان الحيي، وعلي الشجاع القـوي، وليس في أي أمـة من الأمم أمثال هؤلاء الرجال.**

فالحمد لله الـذي خصـنا بهـذه الرحمـة، وأسـبغ علينـا هـذه النعمـة، وأعطانا ببركة نبينـا هـذه الفضـائل الجمـة، وصـلّى اللـه على نبينـا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

1 (4217) **رواه البخاري.**
2 **من حديث أبي هريرة** (855) **رواه مسلم.**
3 (2/148) **الجامع لأحكام القرآن.**
4 (2/31) **مفتاح دار السعادة.**
5 **وحسنه الألباني**، "**حديث حسن**" :**وقال** (3001) **رواه الترمذي.**
6 (4/379) **زاد المعاد.**
7 (98) **صـ، لطائف المعارف.**
8 (2533) **ومسلم** (2509) **رواه البخاري.**